الترجمة بوصفها أنموذجاً إرشاديّاً للهيرمينوطيقا

حسام الدين درويش ■

بأيِّ معنى يمكن لفعل الترجمة أن يكون أنموذجاً إرشاديّاً "Paradigme" للهيرمينوطيقا بشـكلٍ عامٍّ، ولهيرمينوطيقا بول ريكور بشكلٍ خاصٍّ؟ هذا هو السؤال أو التساؤل الأساسيُّ الذي يدور هذا البحث حوله.

«أن تفهم يعنـي أن تترجم»[1]، هذا ما أكَّـده ريكور مراراً، على غرار جورج شـتاينر[2]. وتعبِّر هـذه الجملة ـ بوضـوحٍ وإيجازٍ ـ عن

1 ـ Paul Ricœur, «Le Paradigme de la traduction», *Sur la Traduction*, Paris: Éd. Du Bayard, 2004, p. 23. Ce texte a été initialement présenté par Ricœur comme leçon inaugurale à la Faculté de Théologie Protestante de Paris, Octobre 1998, et a été publié ensuite dans *Esprit*, n° 853, Juin 1999, pp. 8-13.

بول ريكور، **عن الترجمة**، ترجمة: حسـين خمري، (بيروت / الجزائر: الدار العربيَّة للعلـوم ناشرون / منشـورات الاختـلاف، 2008)، ص 31. سـنحيل ـ فـي توثيقنـا للاقتباسـات من كتب ريكور ـ على المصدر بلغته الأصليَّة، وعلى الترجمات العربيَّة (في حال وجودها)، وسـنقوم بالتعديلات التي نراها مناسـبة على الترجمة، عندما نرتأي أنه يمكن ترجمـة النص بطريقةٍ أفضل أو أنسـب. ولا ينبغـي اعتبار ذلك انتقاصاً من قيمة الترجمات الموجودة، التي يستحق أصحابها كلَّ شكرٍ وتقديرٍ.

2 ـ يحيل ريكور، في دراساته عن الترجمة، على كتابين رئيسين:

= George Steiner, *Après Babel*, Paris: Albin Michel, 1998. Antoine Berman,

■ أستاذ الفلسفة في جامعة حلب، سوريا.

الإمكانيَّة القويَّة لعَـدّ الترجمة أنموذجـاً هيرمينوطيقيَّاً. وقد حـاجَّ دومينيك جيرفولوينو ـ في مقالتين مهمَّتيـن[1] ـ أنَّه يمكن النظر إلى الترجمة على أنَّها النموذج الإرشاديّ الثالث للهيرمينوطيقا الريكوريَّة، بعد نموذج الرمز ونموذج النصّ. وقد تحدَّث ريكور نفسه عن الترجمة بوصفها نموذجاً إرشاديّاً.[2] وكتب ـ في هذا الخصوص ـ: «المقصود ـ تحت عنوان الترجمة ـ هو ظاهرةٌ عالميَّةٌ تقوم على قول الرسالة نفسـها، بطريقةٍ أخرى. وفي الترجمة، ينتقل المتكلِّم إلى العالم اللغويِّ لنصٍّ أجنبيٍّ. وفي المقابل، هو يسـتقبل في فضائه اللغويِّ كلام الآخر. ويمكن اسـتخدام ظاهـرة الضيافـة اللغويَّة هذه كنمـوذجٍ لكلِّ فهمٍ»[3]، وتوضيح نموذجيَّة فعل الترجمة بالنسـبة إلـى الهيرمينوطيقا يقتضي إثارة أهم المسائل التي تتناولها هذه الهيرمينوطيقا، والتي تتمثَّل عموماً في: الفهم وسـوء الفهم أو عدمه، أخلاق الحوار والتواصل، العلاقة الجدليَّة بين الأنا والآخر، بين المألوف والغريب، بين فهم الذات وفهم الآخر.

ولتوضيح هذا النموذج الإرشاديِّ سنقوم باستكشـاف التوازي والتداخل بين فعلي الفهم والتأويل من جهةٍ، وفعل الترجمة من جهةٍ أخرى، وسـنقوم في البداية بعرضٍ موجزٍ لتحليل ريكور لفعل الترجمة، قبل العمل على إظهار السمة النموذجيَّة الإرشاديَّة لهذا الفعل بالنسـبة إلى هيرمينوطيقا الحوار، والتدليل على الأطروحة القائلة بأنَّ الترجمة تُمثِّل النموذج الإرشاديَّ الثالث للهيرمينوطيقا الريكوريَّة، بعد نموذجي الرمز والنصّ.

= *L'épreuve de l'étranger. Culture et Traduction dans l'Allemagne Romantique*, Paris: Éd. du Gallimard, 1995.

1 ـ Domenico Jervolino, «Herméneutique et traduction. L'autre, l'étranger, l'hôte», *Ricœur, Herméneutique et traduction*, Paris: Ellipse, coll. «Philo», 2007, pp. 71-89. Cet article a été publié initialement in *Archives de philosophie*, n° 1, 2000, pp. 79-93. Le deuxième article est «La question de l'unité de l'œuvre de Ricœur à la lumière de ses derniers développements. Le paradigme de la traduction», *ibid.* pp. 91-103. Cet article a été publié initialement in *Archives de philosophie*, n° 4, hiver 2004, pp. 659-668.

2 ـ Paul Ricœur, «Le Paradigme de la Traduction», *Sur la Traduction*, *op. cit.,* pp. 21-52. (**عن الترجمة**، ص 31 – 58).

3 ـ Paul Ricœur, «L'Universel et l'Historique», *Magazine Littéraire*, n° 390, Septembre 2000, p. 41.

الترجمة هي نموذجٌ للِّقاء مع الغيريَّــة، مع ما هو غريبٌ أو أجنبيٌّ. وقد وضع ريكور الصعوبات المرتبطة بالترجمة تحت العنوان الذي اختاره أنطوان بيرمان لكتابه «**امتحان الغريب** *L'Épreuve de l'Étranger*». ويرى ريكور أنَّه ينبغــي أن يُؤخَذ مصطلــح «الامتحــان» أو «المحنة» هنا بمعنييــن: أوَّلهما: «عذابٌ مُعانى»، وثانيهما، «مدَّة الامتحان»[1]. وما هو موضع امتحانٍ أو محنةٍ هــو الرغبــة أو الدافع إلــى الترجمــة. ويكمن الامتحان في تحقيق الوســاطة بين ما هو غريبٌ أو أجنبيٌّ ـ العمل، الكاتــب، لغتهما وثقافتهما ـ والقارئ ولغته وثقافته. وتشــكِّل هذه الوســاطة محنةً، بقــدْر ما يقوم فعــل الترجمة ـ كما يقول ريكــور مــع فرانــز روســينزفيغ «Franz Rosenzweig» ـ علــى خدمــة ســيِّدين: الأجنبيّ داخل عملــه، والقارئ في رغبته فــي التملُّك»[2]. ولكن، كيف يمكن القيام بهذا العمل المتناقض؟ ولماذا يبدو صعباً أو مستحيلاً القيام به؟

تمثِّل الترجمة ـ بوصفها محنةً في العلاقة مع ما هو غريبٌ ـ تحدياً؛ لأنَّها تواجه مقاومةً مزدوجةً من جانب اللُّغة المستقبِلة ومن جانب اللغة المستقبَلة أو الأجنبيَّة

تمثِّل الترجمة ـ بوصفها محنةً في العلاقة مــع ما هو غريبٌ ـ تحدياً؛ لأنَّها تواجــه مقاومةً مزدوجةً من جانب اللُّغة المســتقبِلة ومن جانب اللغة المســتقبَلة أو الأجنبيَّة. وتعبِّر المقاومة التي تقوم بها اللغة المستقبِلة عن نفسها في ما ســماه ريكور «عمل الذاكرة» و«عمل الحِداد»[3]. ففي مواجهة

1 ـ Paul Ricœur, «Défi et bonheur de la traduction», *Sur la traduction*, *op. cit.*, p. 8. Ce texte est un article tenu à l'Institut historique allemand le 15 avril 1997. (**عن الترجمة**، ص 16).

2 ـ *Ibid.* p. 9. (المعطيات السابقة نفسها).

3 ـ يســتند ريكور، بخصوص معنى هذيــن المصطلحين، إلى التحليل النفســي الفرويدي. وللمزيد حول التناول الريكوري لهذين العملين (عمل الحداد وعمل الذاكرة)، انظر:

Paul Ricœur, «La question de la preuve dans les écrits psychanalytiques de Freud», *Écrit et conférences 1. Autour de la psychanalyse*textes ressemblés et préparés par Catherine Goldenstein et Jean-Louis Schlegel, présentation par Jean-Louis Schlegel, postface par Vinicio Busacchi, Paris: Éd. du Seuil, coll. «La couleur des idées», 2008, pp. 19-71. Cf. surtout =

عمل الترجمة، ثمَّة مقاومةٌ وكفاحٌ ضدَّ خسـارة اللغة المسـتقبِلة لقداستها ولاكتفائهـا الذاتيِّ. ومن دون القبول بهذه الخسـارة التي لا يمكن تجنُّبها في عمـل الترجمة، لا يمكن الفـوز بالرهان أو التحدي الـذي يمثِّله عمل الترجمة. وفي المقابـل، نجد مقاومـةً موازيَةً من جانب اللُّغـة الأجنبيَّة. وتظهر هذه المقاومة بدايةً في شكلٍ استيهاميٍّ أو خياليٍّ متمثِّلٍ في وهم أو حلم الترجمة المثاليَّة الكاملة. ووفقاً لهذا الوهم، ينبغي أن تكون الترجمة مطابقةً للأصل وتكراراً له بلغةٍ أخرى. ولا تقتصـر مقاومة اللُّغة الأجنبيَّة لعمل الترجمة على هـذه الصيغة المثاليَّة الخياليَّـة؛ وإنَّما تنبع أيضاً من صعوبة ـ وربَّما اسـتحالة ـ التوفيق بين الحقلين الدلاليين المختلفين للغة الاسـتقبال واللُّغـة الأجنبيَّة. وفضلاً عـن ذلك، تظهر هـذه المقاومة في اختـلاف الإرث الثقافـي الذي تحملـه كلمات اللغـة الأجنبيَّـة وتعابيرها وجملها، عن التراث الثقافي المتضمَّن في كلمات لغة الاسـتقبال وتعابيرها وجملها. وقد أشـرنا إلى غنى وتعقُّد دلالات الكلمـات وتنوُّعها بين دلالاتٍ أوَّليَّة قاموسـيَّة ودلالاتٍ إضافيَّةٍ أو ملحقةٍ. وحتَّى إذا أخذنا بعين الاهتمام عمل السياق الذي يُغرِبل الكثير من دلالات الكلمات ويستبعدها، يبقى من الصعب جداً ـ بل ومن المسـتحيل أحياناً أو غالباً ـ نقل كلِّ الدلالات التي تعبِّر عنها كلمات لغةٍ ما إلى لغةٍ أخرى.

ويمكن لوهم الترجمة الكاملة ـ الذي ينبغي التخلُّص منه ـ أن يظهر في عدَّة أشكالٍ وصيغٍ. وقد أشـار ريكور إلى شكلين من هذا الوهم أو الحلم أو الأمنية بشكلٍ خاصٍّ. يرتبط الشكل الأوَّل بالتوجه نحو العالميَّة، ويتمثَّل في السَّعي إلى تأسيس مكتبةٍ شـاملةٍ وكاملةٍ، تضمُّ كلَّ الترجمات لكلِّ الأعمال، في كلِّ اللُّغات. وهذا حلم تأسيس كتاب كلِّ الكتب، حيث تُستبعَد كلُّ إمكانيَّةٍ لعدم القابليَّـة للترجمة. أمَّا الشـكل الثاني لحلم الترجمة الكاملة فيتَّسـم

= pp. 29-33. Une version anglaise abrégée «The Question of Proof in Freud's Psychoanalytic Writings» a été publiée dans *Journal of the American Psychoanalytic Association*, 25, 1977, n° 4, pp. 836-871. Une version Française abrégée a été publiée dans *Qu'est-ce que l'homme ? Philosophie/Psychanalyse: Hommage à Alphonse De Waelhens (1911-981),* Bruxelles: Faculté Universitaire Saint-Louis, 1982, pp. 591-619.

بطابع انتظار المسـيح المخلِّص «Un Caractère Messianique». والمنشود في هذا الشكل هو لغةٌ صافيَةٌ، «تحمل كلُّ الترجمات عنها، في داخلها ما يشبه صدىً مخلِّصاً»[1]. ونجد في كلِّ صيَـغ الترجمة المثاليَّة الكاملة أمنية تحقيق ربحٍ من دون تكبُّد أيِّ خسـارةٍ. وينطوي التخلِّي الضـروريُّ عن هذه الأمنيَة على جِـدادٍ على هذه الأمنيـة المسـتحيلة التحقيق. والتخلي عـن الترجمة المثاليَّـة الكاملـة، وعـن العقلانيَّـة المطلقـة المرتبطة بهـا، ينبغي أن يقودنا ـ بشـكلٍ لا مفرَّ منه ـ إلى تقبُّل الاختـلاف الذي لا يمكن تجاوزه بين المألوف أو الخاصّ والأجنبـيِّ. والعالميَّة أو الكونيَّة المنشودة من قِبل كلِّ أشكال حلم الترجمة المثاليَّة الكاملة ليست مسـتحيلةً فحسب؛ بل هي أيضاً ضارّةٌ وخطـرةٌ. ويوضِّح ريكور هذه الفكرة، فيكتب: «تريـد الكونيَّة المسـتعادة محـو ذاكرة الأجنبـيِّ وربَّما حب اللُّغة الخاصَّـة، في الضغينة ضدَّ محليَّة اللُّغة الأمِّ. ويمكـن لمثل هذه الكونيَّة ـ التـي تقوم بحـذف تاريخها الخـاصّ ـ أن تجعل من الجميـع غرباء على ذواتهم، وضحايا للتمييز اللغويِّ، ومنفيِّين يمكـن أن يتخلَّوا عن البحث عن ملاذٍ للغة استقبالٍ؛ باختصار، تجعلهم بدواً تائهين»[2].

إنّ الترجمة لا تمثِّل فقط تحدياً أو رهاناً لا يمكننا الفوز به أو فيه إلّا من خلال الكفاح ضدَّ المقاومة الناتجة عن عمل الذاكرة. بل يمكن الحديث أيضاً عن الفرح والسعادة في الترجمة

فالترجمة لا تمثِّل فقط تحدياً أو رهاناً لا يمكننا الفوز به أو فيه إلّا من خلال الكفاح ضـدَّ المقاومة الناتجة عن عمل الذاكـرة؛ بل يمكن الحديث أيضاً عن الفرح والسـعادة في الترجمة. ويظهر هذان البعدان الكامنان في الترجمة ـ التحـدي والسـعادة ـ معاً في عنـوان إحدى مقـالات ريكور عن الترجمـة، والمعنونة بـ«**تحدي الترجمة وسـعادتها**». فبإعلان الحداد على الترجمة المثاليَّة الكاملة، وبإقرار عدم قابليَّة اختزال الخاصّ إلى الغريب، أو بالعكس، يجـد المترجم التعويض عن ذلك ومكافأته أو «سـعادته» «في

1 ـ *Ibid.* p. 18. (المصدر السابق، ص23).

2 ـ *Ibid.* p. 18-19. (المعطيات السابقة نفسها).

الاعتراف بالوضعيَّـة غير القابلة للتجـاوز لحواريَّة فعـل الترجمة مثل أفقٍ معقـولٍ للرغبة فـي الترجمة، في مـا أحبُّ أن أسـمِّيه **الضيافـة اللغويَّة** «l'Hospitalité Langagière»[1]. فـ«الضيافة» أو «الاسـتضافة» هو المصطلح الذي يعبِّر ـ بشـكلٍ نموذجيٍّ ـ عن أخـلاق الحوار والفهـم والتأويل، التي حاولنا رسـم خطوطهـا العريضة أو الأوَّليَّـة في هذا البحـث. وعلى صعيد الترجمة وفي هذه الضيافة، «تُعوَّض لذَّة الإقامة في لغة الآخر بواسطة لذة اسـتقبال كلام الآخر عندنا، في منزل الاسـتقبال الخاصّ بنا»[2]. ونجد في التحليل الريكوريِّ لفعل الترجمة كلَّ **السـمات أو العناصر التي تجعل من هذا الفعل نموذجاً هيرمينوطيقيا** بامتياز.

فلنبدأ بِـ«**تنوُّع اللُّغات وتعدُّدها**». لا ينظر ريكور إلى هذا التعدُّد والتنوُّع على أنَّه أمرٌ ضـارٌّ أو غير مفيدٍ. ويمكننا أن نسـتخلص مـن كتاباته حججاً عديدةً ضدَّ القائلين بسلبيَّة هذا التعدُّد والتنوُّع والحالمين بلغةٍ واحدةٍ كاملةٍ. **فعلى الصعيد التاريخيِّ** انتقد ريكور بشـدَّةٍ ـ كما بيَّنا سـابقاً ـ الكونيَّة أو العالميَّة المتعلِّقة بحلم اللُّغـة المثاليَّة الكاملة، بأشـكاله وصوره المتعدِّدة. ففي مثل هذه الكونيَّة، سيتمُّ قمع بل وطرد تاريخيَّة الثقافات واللُّغات الخاصَّة المحليَّة، في تنوُّعها واختلافها الغنـيِّ، لصالح هيمنة ثقافةٍ أو لغةٍ واحدةٍ أو أحاديَّةٍ. وفي كونيَّةٍ كهذه سـنكون جميعاً غربـاءً أو أجانب. أمَّا **على الصعيد الأنطولوجـيِّ** فقد أكَّد ريكـور أنَّ تعدُّد اللُّغـات أو كثرتها ليس سـوى أحد مظاهر الشـرط الإنسـانيِّ الواقعيِّ، وهو شـرط التعدُّديَّة على كلِّ مستويات الوجود؛ وهـي التعدُّديَّة التي يُعدّ تنـوُّع اللُّغات أكثر مظاهرهـا إثارةً للقلق. لمـاذا كلُّ هـذه اللغـات؟ الإجابة: «هكـذا؛ نحن هكـذا بالتكويـن، وليس بالمصادفـة التـي يمكن أن تكـون خطأً، «**بعـد بابل**»، وفقاً لعنـوان كتاب شـتاينر»[3]. وتذكِّرنـا معالجة ريكور لمسـألة تعدُّديَّة اللُّغـات بأطروحته عن

1 ـ *Ibid.* p.19. (المصدر السابق، ص23 - 24).

2 ـ *Ibid.* p.20. (المصدر السابق نفسه، ص24).

3 ـ Paul Ricœur, «Un "passage": traduire l'intraduisible», *Sur la traduction*, *op. cit.*, pp.58-59 (المصدر السابق، ص62).

أنطولوجيا الفهم، في كتاب «**صراع التأويلات**»[1]. وعلى هذا الأساس، يمكن القول إنَّ تعدُّديَّة اللُّغات وتعدُّديَّة التأويلات لهما مصدرٌ أساسيٌّ واحدٌ هو التعدُّديَّة الأُنطولوجيَّة. ولهذا أكَّد ريكور ـ في وساطته بين التأويلات المتنافسة ـ أنَّ كلَّ نسقٍ هيرمينوطيقيٍّ يبتكر أو يكتشف[2] أحد جوانب أو أبعاد الوجود. ولا يمكن لهذه الهيرمينوطيقا إلّا أن تكون متضمَّنةً أو مُنخرِطة «Impliquée» وغير منفصلةٍ؛ لأنَّه لا يمكن إدراك الكينونة أو معرفتها إلا بوصفها كينونةً مؤوَّلةً. وهي ـ بالإضافة إلى ذلك ـ أنطولوجيا قائمةٌ على التعدُّد والتنوُّع، وليس على الوحدة أو الأحاديَّة؛ فالكينونة تُقال بطرقٍ متعدِّدةٍ، وثمَّة مجالٌ دائمٌ لأن تُقال بطريقةٍ أخرى غير تلك التي قيلت أو تقال بها.

لا ينظر ريكور إلى التعدُّد والتنوُّع على أنَّه أمرٌ ضارٌّ أو غير مفيدٍ، ويمكننا أن نستخلص من كتاباته حججاً عديدةً ضدَّ القائلين بسلبيَّة هذا التعدُّد والتنوُّع والحالمين بلغةٍ واحدةٍ كاملةٍ

و«**الشيء نفسه تقريباً، بطريقةٍ أو بصيغةٍ أخرى**»، هي الصيغة التي يمكن بواسطتها تعريف الترجمة ـ بالمعنى الواسع ـ بها.[3] وقد ميَّز ريكور في هذا التعريف بين الترجمة الداخليَّة، التي تحصل داخل اللغة الواحدة نفسها، والترجمة الخارجيَّة التي تحصل بين لغاتٍ مختلفةٍ، وهي الترجمة بالمعنى الضيِّق. وانطلاقاً من هذا التعريف يمكن إيجاد الكثير من نقاط التقاطع والتماثل بين الترجمة الداخليَّة من ناحيةٍ أولى، والتفسير والفهم والتأويل من ناحيةٍ ثانيَةٍ. ويقودنا ريكور نفسه إلى التفكير في السمة النموذجيَّة لفعل الترجمة، من خلال وصفه لهذا الفعل بالنموذج الإرشادي.

1 ـ انظر: بول ريكور، **صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية**، ترجمة منذر عياشي، مراجعة جورج زيناتي، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2005)، ص51 - 57.

2 ـ يستخدم ريكور كلمة "inventer" بمعناها المزدوج الذي «يتضمَّن الاكتشاف والخلق معاً». انظر، في هذا الخصوص:
Paul Ricœur, *La Métaphore Vive*, Paris: Éd. Du Seuil, coll. «Point/Essais», 1975, pp. 387-388.

3 ـ انظر، مثلاً خصوصاً: أمبرتو إيكو، **أن نقول الشيء نفسه تقريبًا**، ترجمة أحمد الصمعي، مراجعة نجم بو فاضل، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2012).

كمـــا أنَّ التعدُّديَّـــة التي دافـــع عنها ريكور ـ علـــى صعيد اللُّغـــة أو اللُّغات المختلفة ـ تمَّ تأكيدها أيضاً على صعيد الجماعات اللغويَّة. ففي «**الاستعارة الحيَّة**»، ترافع ريكور «لصالح تعدُّديَّة أشـــكال الخطاب ومستوياته»[1]. وهو يقصد بهـــذه التعدُّديَّة تنوُّع الميادين التي يتمُّ اســـتخدام اللُّغة أو الخطاب فيهـــا: الخطاب العلمـــيِّ والخطاب الشـــعريِّ والخطاب الدينـــيِّ والخطاب الفلســـفيِّ أو التأمُّليِّ... إلخ. ولكنَّ التشـــديد على هذه التعدُّديَّة ينبغي أن يترافق مع تأكيد نســـبيَّتها. فعلى العكس من فيتجنشـــتاين «Wittgenstein» الذي تحدَّث عن تبايـــنٍ أو اختلافٍ جذريٍّ بين تعابير اللُّغة المتعدِّدة، يرى ريكور أنَّ هذه التعدُّديَّة مشـــمولةٌ ـ على مستوىً أعلى ـ بوحدةٍ تضمُّ مختلف صيغ الخطاب والتفاعل القائم بينها. وعلـــى الرغم من هذه الوحدة وهذا التفاعل، فبإمكان كلِّ صيغةٍ أو نوعٍ من الخطاب أن تســـهم في قول الواقع بطريقةٍ ومضمـــونٍ متميزيـــن ومختلفين. ولهـــذا عارض ريكـــور الأطروحة الوضعيَّة القائلة بأنَّ الخطاب العلميَّ ـ أو الخطاب الوصفيَّ وحده ـ يستطيع التعبير عن الواقع ونقله إلى مســـتوى اللغة. وفي هـــذا الإطار تمَّ الحديث عن خصوصيَّة الخطاب الشعريِّ أو الأدبيِّ، والمرجعيَّة والحقيقة الاستعاريَّة.

والتعدُّديَّـــة التـــي دافـــع عنها ريكـــور ـ على مســـتوى اللغـــة وأنماط الخطـــاب ـ قائمةٌ في كلِّ لقـــاءٍ أو حوارٍ مـــع الآخر، حتَّـــى عندما يكون المتحاورون منتمين إلى الجماعة اللغويَّة نفسها. فكلُّ حوارٍ هو لقاءٌ بين أنمـــاطٍ مختلفـــةٍ من التفكيـــر وأنســـاق الاعتقـــادات وأســـاليب التحدُّث والتعبير... إلخ. وعلى الرغم من الاختلاف الملازم لكلِّ حوارٍ مع الآخر، يبقـــى التواصل ـ مـــن حيث المبـــدأ ـ ممكناً دائمـــاً. ولكـــن عندما يبلغ الاختـــلاف أقصى درجاتـــه، ويصبـــح جذرياً، يمكننـــا القـــول حينها إنَّ «المتحاوريـــن يتحدَّثون لغتيـــن مختلفتين»، مع العلم أنهـــم ـ من وجهة النظر اللغويَّـــة المحضة والعامَّة ـ يتحدَّثون اللغة نفســـها. وبهذا المعنى نقول ـ مع دومينغو جيرفولينو ـ : إنَّ الاختلاف اللُّغوي أو تنوُّع اللُّغات له

1 ـ *Ibid.* pp. 323-324.

سـمةٌ نموذجيَّةٌ؛ فمع هذا الاختلاف وهذا التنوُّع، «يدخل التنوُّع الإنسانيُّ ـ في كلِّ أشكاله ـ إلى تفكيرنا»[1].

وعلى الرغم من هذا التعـدُّد أو التنوُّع الكبيـر والاختلاف العميق بين البشـر ولغاتهم ومعتقداتهم... إلخ، فقـد راهن ريكور دائمـاً على إمكانيَّة التواصل بينهم، وترجمة الغيريَّة وفهمها، بما في ذلك الغيريَّة الثقافيَّة. وقد تأسَّـس هذا الرهان على افتراضين أساسيَّين؛ أوَّلهما: رفْض التخيير الثنائيّ الحصـريّ، الذي يقتصر على القـول إنَّ الترجمة إمَّا ممكنةٌ وإمَّا مسـتحيلةٌ «traduisible *versus* intraduisible»؛ وطـرح ثنائيَّة عمليَّـة بديلة، تنبني على ممارسة الترجمة نفسها: الأمانة مقابل الخيانة «Fidélité *Versus* Trahison». وثانيهما: التأكيد أنَّ غيريَّة الآخـر أو أجنبيَّته لا يمكن أبداً أن تكون مطلقةً؛ ولذلك فالترجمـة والتواصـل ممكنان دائماً مـن حيث المبـدأ. وعلى هذا الأساس يمكن أن نضع الهيرمينوطيقا الريكوريَّة في إطار ما يسمِّيه ريتشارد كيرنـي «الهيرمينوطيقـا الحركيَّـة l'Herméneutique Diacritique»[2]. وتتعلَّق الإمكانيَّـة الدائمة للترجمة والتواصل بين الثقافات الإنسـانيَّة ـ التي أكَّدها ريكور بالعلامات اللغويَّة وبالقيم، وبكلِّ مـا يدخل في إطار الهُويَّة الثقافيَّة. وفي توضيحه لهذه الإمكانيَّة، يكتب ريكور:

1 ـ Domenico Jervolino, «La question de l'unité de l'œuvre de Ricœur à la lumière de ses derniers développements. Le paradigme de la traduction», *Ricœur, Herméneutique et traduction*, *op. cit.,* p. 99.

2 ـ ينتمي مصطلـح "Diacritique" إلى علم اللغة، ويشـير إلى العلامات التي توضـع عادةً فوق أو تحت الحـروف. ولتوضيح معنى هذا المصطلح، في هذا السـياق، نقتبس مـا كتبه كيرني، في هذا الخصوص: تنظر هـذه الهيرمينوطيقا «في إمكانيَّات التواصـل البينيَّة، بين ذواتٍ متباعدةٍ بالتأكيد، لكن ليس إلى درجةٍ لا تسـمح بالمقارنة بينها. وتؤكِّد هذه المقاربة الحركيَّة على أنَّ الصداقة تبدأ مع استقبال الاختلاف. وهي تجعل من نفسـها رسول ممارسة الحوار، مع رفضها لأن تخضع للجدل الاختزاليِّ للأنانيَّة المحكومة **بمنطق** الذاتيَّة، بين **منطق** الواحد، ولا **منطق** الآخر، فنجد **المنطق الثنائيَّ** للذات عينها كآخر».

Richard Kearney, «Entre soi-même et un autre: l'herméneutique diacritique de Ricœur», *Cahiers de L'Herne 2: Ricœur*, sous la direction de Myriam Revault d'Allonnes et de François Azouvi, trad. par Patrick DiMascio, traduction révisée par Myriam Revault d'Allonnes, Paris: Éd. de L'Herne, coll. «Point/Essais», 2004, p. 59.

بالتأكيد، لا يمرُّ كلُّ شيءٍ في الترجمة، ولكن دائماً يمرُّ شيءٌ ما. فليس هناك علَّـةٌ، وليس هنـــاك احتمالٌ فـــي أن يكون نســـقٌ لغويٌّ مـــا غير قابل للترجمة. والاعتقاد بأنَّ الترجمة ممكنةٌ إلى حدٍّ ما يعني التأكيد أنَّ الأجنبيَّ هو إنســـانٌ، وباختصار، يعني الاعتقاد بأنَّ التواصل ممكنٌ. وما قلناه تواً عن اللغة ـ عن العلامات ـ يصحُّ أيضاً بالنسبة إلى القيم والانطباعات الأساسيَّة والرموز التي تكوِّن الأرضيَّة الثقافيَّة لشعبٍ ما[1].

«**أن نفهم يعني أن نترجـــم**» أو «**الفهم ترجمةٌ**»، وفي هـــذه الترجمة لا يتمُّ عبور كلِّ الدلالات والأفكار والقيم، ولكـــنَّ بعضاً منها يُعْبرُ بالتأكيد. وانطلاقاً من ذلك، لا ينبغـــي أن ننتظر من الفهم ومـــن الترجمة أن يكونا مطابقين تماماً لموضوعهما، بحيث يشكِّلان نسخةً طبق الأصل عنه. ويمكننا بالتالـــي الحديث ـ بخصوص ترجمةٍ مـــا أو فهمٍ ما ـ عن معـــادِلٍ أو مكافئٍ نســـبيٍّ، عن «مكافئٍ غيـــر مطابقٍ». ويعني الإقرارُ باســـتحالة بلـــوغ المعرفة المطلقة قبولَنا ـ في الوقت نفسه ـ استحالةَ اختزال الغريب أو الأجنبيِّ إلى ذواتنا أو إلى مـــا هو مألوفٌ أو معروفٌ بالنســـبة إلينـــا. وبتخلِّينا عن حلم الفهـــم الكامل أو الترجمـــة المثاليَّـــة الكاملة، وعـــن المعرفـــة الكاملة أو المطلقة، نحن نعترف ـ في الآن ذاته ـ بالســـمة الهيرمينوطيقيَّة لإدراكنا أو لفهمنا للآخر وللعالم ولأنفســـنا. وتُظهِر الوضعيَّة المؤقَّتة والناقصة ـ التي يجد كلُّ فهمٍ نفســـه فيها ـ أنَّ عدم الفهم هو جزءٌ مـــن الفهم ـ حتَّى ذلك الذي يمكن وصفـــه بالفهم الكافي ـ أكثـــر من كونه نقيضاً لـــه. ومثلما أنَّ ثنائيَّة «قابلٌ للترجمة / غير قابلٍ للترجمة» لا تشـــكِّل مدخلاً مناســـباً لتناول مســـألة الترجمة، فإنَّ ثنائيَّة «قابلٌ للفهم / غير قابـــلٍ للفهم» لا تمثِّل أيضاً مدخـــلاً ملائماً لتحليـــل العلاقـــة الحواريَّة مـــع الآخر. ولا تكمن المســـألة الأساسيَّة في معرفة ما إذا كان يمكن فهم الآخر أو لا، وإنَّما تكمن بالأحرى في ســـؤال «كيف نفهم الآخر؟»، و«ما الشـــروط التي تســـمح بحصول هذا

1 ـ Paul Ricœur, «Civilisation universelle et cultures nationales», *Histoire et vérité*, Paris: Éd. du Seuil, coll. «Point/Essais», 1967, p.336. Cet article a été publié initialement en *Esprit,* Octobre 1961.

الفهم، أو تساعد على ذلك؟». ويكمن العلاج الجزئيُّ والنسبيُّ لظاهرة عدم الفهم أو سوئه في التحلي بما يمكن تسميته بـ «أخلاق الحوار والفهم»، وهي الأخلاق القائمة على الاحترام والتسامح (المتمثِّل في تقبُّل الاختلاف) وافتراض معقولية كلام الآخر وصدقه، إلى أن يثبت عكس ذلك. ولا يمكن تجنُّب ظاهرة سوء الفهم أو عدمه، وحلُّها بشكلٍ كاملٍ وحاسمٍ؛ لأنَّ الفهم الكامل ليس سوى وهمٍ لا يمكن تحقيقه. ولكن في سعينا لتجاوز سوء الفهم أو عدمه ـ لأقصى درجةٍ ممكنةٍ ـ ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أنَّ عدم الفهم أو سوءه ناتجٌ جزئياً عن عدم قابليَّة اختزال غيريَّة الآخر إلى ذاتيَّة الأنا. وبهذا المعنى نتَّفق تماماً مع كريستيان برنِرفي أنَّ عدم الفهم يشكِّل «مدرسةً للغيريَّة»[1]، ولكنَّنا نرى أنَّه ينبغي أن نضيف إلى ذلك أنَّه باستطاعة الفهم النفاذ جزئياً ونسبياً إلى هذه الغيريَّة، من دون اختزالها في ما هو ذاتيٌّ أو مألوفٌ ومشتركٌ.

يكمن العلاج الجزئيُّ والنسبيُّ لظاهرة عدم الفهم أو سوئه في التحلي بما يمكن تسميته بـ«أخلاق الحوار والفهم»، وهي الأخلاق القائمة على الاحترام والتسامح (المتمثِّل في تقبُّل الاختلاف) وافتراض معقولية كلام الآخر وصدقه

والترجمة ـ بوصفها امتحاناً في العلاقة مع ما هو غريبٌ أو أجنبيٌّ ـ هي مثالٌ أو نموذجٌ إرشاديٌّ موضِّحٌ لفعلي الفهم والتأويل، بقدر ما يشكِّل فهمنا للآخر ولغيريَّته ولقيمه ولنظرته للعالم رحلةً أو «مغامرةً مخيفةً»، وفق تعبير ريكور. وما ينبغي استكشافه واكتشافه وإدراكه في هذه المغامرة ليس أجنبيَّة الآخر وغيريَّته فحسب، بل ما هو خاصٌّ وذاتيٌّ أيضاً. ويمكن القول مع الشاعر الألماني هولدرلن «Hölderlin»: «ينبغي تعلُّم ما هو خاصٌّ، بقدر تعلُّم ما هو أجنبيٌّ»[2]. وليس هناك فهمٌ مباشر للذات، كما تبيِّن هيرمينوطيقا ريكور في كلِّ مراحلها المختلفة؛ ففهم الذات لنفسها لا يمكن

1 ـ Cf. Christian Berner, *Au détour du sens. Perspectives d'une philosophie herméneutique, du sens. Perspectives d'une philosophie herméneutique*, Paris: Éd. du Cerf, coll. «Passages», 2007.

2 ـ Cité dans: Paul Ricœur, «Le paradigme de la traduction», *Sur la traduction*, *op. cit.*, p. 39. (**عن الترجمة**، ص 43).

إلَّا أن يكون متوسِّـطاً عبـر فهم عالم العلامـات. وعلى غـرار لويس لاڤيل «Louis Lavelle»، يرى ريكور أنَّ «أقصر طريق بين الذات ونفسـها يمرُّ عبر الآخر». وفي هذه الرحلة أو المغامرة الساعية إلى فهم غيريَّة الآخر نكتشف أنَّ هذه الغيريَّة موجودةٌ في قلب الذات نفسـها، على شكل جدلٍ بين الغيريَّة «Altérité» والهُويَّـة الذاتيَّـة «l'Ipséité». وغيريَّة الآخـر ـ كما يقول ريكور ـ تُقال بأشكالٍ أو طرقٍ متعدِّدةٍ[1].

وهكذا نجد أنَّه يمكن المقاربة والمقارنة بين المغامرة المخيفة المتمثِّلة في الفهـم، ومحنة أو امتحـان العلاقة مـع الغريب أو الأجنبـيِّ، وفي كلتا الحالتين يتمُّ الحصول على تعويضٍ أو على نوعٍ من المكافأة في نهاية الأمر. ففي الترجمـة الخارجيَّة ـ وهي الترجمـة بالمعنى الضيِّق للكلمة ـ تفسـح الضيافة اللغويَّة المجال لتوسـيع أفق لغتنا الخاصَّة، وإعادة اكتشـافها من جديدٍ، والكشـف عن غرابتها أو أجنبيَّتها الجزئيَّة، بالنسـبة إلى أصحابها أنفسهم. ومن دون امتحان الغريب أو الأجنبيِّ، ومن دون مغامرة فهم غيريَّة الآخر ليس ثمَّة حـوارٌ، لا على صعيـد الأفراد ولا على صعيـد الثقافات أو الحضارات. وبتعبيـرٍ آخر، من دون هـذا الامتحان وهذه المغامرة سـنكون «مهدَّديـن بالانغلاق على أنفسـنا فـي مرارة الحـوار المنفرد مـع ذواتنا، ومعزولين مع كتبنا»[2].

ولا ينبغي أن يكون التقريب بين الترجمة والحوار مفاجئاً أو مدهشاً؛ لأنَّ الاعتراف بما سـماه ريكور «الوضعيَّـة غير القابلة للتجـاوز لفعل الترجمة» يشـكِّل الأفق المعقول للرغبة فـي الترجمة. ولا يمكن فصل هـذا الاعتراف ـ الذي تكمن فيه مكافأة المترجم ـ عن عدم قابليَّة اختزال الخاصِّ والغريب، أحدهما فـي الآخر. والنتيجة الأكثر أهمِّيَّةً التي يمكـن أن تنتج عن الترجمة وعن الحوار هي توسـيع فهمنا لذواتنا وتعميق هذا الفهم بواسطة فهم الآخر

1 ـ Cf. Paul Ricœur, «L'interprétation de soi, allocution prononcée devant l'Université de Heidelberg en janvier 1990» (présentation par Jeffrey Andrew Barash), *Cité*, n° 33, 2008/1, p. 146.

2 ـ Paul Ricœur, «Le paradigme de la traduction», *Sur la traduction*, *op. cit.*, p. 52.
(**عن الترجمة**، ص 52).

وفهم خطابه. وفي هذا الإطار نستطيع القول إنَّ نموذج الترجمة هو النموذج الإرشاديُّ الثالث للهيرمينوطيقا الريكوريَّة، التي كانت دائماً ـ وخلال مسارها الطويـل ـ هيرمينوطيقا للذات أو لفهـم الذات. وهي كذلـك؛ لأنَّها ترى أنَّ الهدف الأساس لكلِّ فهمٍ ولكلِّ تأويلٍ هو فهم الذات. ونظراً إلى أنَّه من غير الممكن بلوغ هذا الفهم إلا عن طريق فهم العلامات والرموز والنصوص؛ فإنَّ ريكور قد صبَّ اهتمامه على دراسـة هذه المواضيع الوسيطة. وبكلماتٍ أخرى لقد انشغل ريكور بدراسـة فهم أو تأويل الرموز والعلامات والنصوص؛ لأنَّه رأى أنَّ فهم الذات يمرُّ بالضرورة عبر هذه التأويلات.

إنَّ الأساس لكلِّ فهم ـ بحسب ريكور ـ هو فهم الذات. ومن غير الممكن بلوغ هذا الفهم إلا عن طريق فهم العلامات والرموز والنصوص. وقد اهتم ريكور بدراسة هذه المواضيع الوسيطة

وبالإضافة إلى الاهتمام بفهم الذات تتَّسـم الهيرمينوطيقـا الريكوريَّـة بالاهتمـام باللغـة وبالتعدُّديَّة اللغويَّة وتنوُّعهـا. ولهذا يمكن القول إنَّ هـذه الهيرمينوطيقا هـي هيرمينوطيقا اللغة و«هيرمينوطيقا عبر اللُّغة»، كما يشير جيرفولينو محقّاً، في هذا الشأن:

إنَّ فلسفة ريكور هي أكثر من مجرَّد «فلسفةٍ للُّغة» فهي «فلسـفةٌ عبـر اللغـة»؛ أي أنَّها تَعبُر ظاهرة اللغة ـ في غناها ـ من دون أن تنسى بتاتاً أنَّنا نتحدَّث ـ عبر اللغة ـ عن شـيءٍ ما، وأنَّه لا ينبغـي أن تصبح اللغة ـ إن لم يكـن تجريداً متعمَّداً ومقصوداً ـ نسـقاً مغلقاً على نفسـه، مـن دون مرجعيَّةٍ علـى العالم وعلى متحدِّثي الخطاب[1].

فهيرمينوطيقا ريكور هي **هيرمينوطيقا للُّغة وهيرمينوطيقا عابرة للُّغة** لأنَّ نماذجها الأساسـيَّة الثلاثة (الرموز والنصوص والترجمة) موجودةٌ على صعيد اللغة؛ فالهيرمينوطيقـا الريكوريَّة كانت بدايـةً **هيرمينوطيقا الرموز**»، بمعنى

1 ـ Domenico Jervolino, «La question de l'unité de l'œuvre de Ricœur à la lumière de ses dernier développements. Le paradigme de la traduction», *Ricœur, Herméneutique et traduction*, *op. cit.*, p. 97.

أنَّها اتَّخــذت بدايةً من الرموز موضوعاً لهــا؛ **والرموز هي علاماتٌ** ذات معانٍ متعدِّدةٍ؛ **والعلامة هي وحدةٌ لغويَّةٌ**. وما يميِّز الرمز عن بقيَّة العلامات، هو أنَّ **قصديَّته مزدوجةٌ أو متعدِّدةٌ** دائماً. ومن المفيد أن نتذكَّر في هذا السياق أنَّه ـ انطلاقاً من التحديد المتضافر المعنى «la Surdétermination» أو من تعدُّديَّة المعاني الملازمة لكلِّ رمزٍ أصيــلٍ ـ قد أظهر ريكور إمكانيَّة بل وضرورة إقامة جدل بين التأويلات المتناقضة والمتكاملة، في الوقت نفسه: بين الحفريَّات أو الأركيولوجيــا «l'Archéologie» (الذي تجسِّــده الفرويديَّة خصوصــاً) والتوجُّه الغائــي أو التيليولوجيــا «La Téléologie» (وهو ما يظهر فــي الفينومينولوجيا الهيغليَّة، بشــكلٍ نموذجيٍّ)[1]، بين هيرمينوطيقا التدمير وهيرمينوطيقا اســتعادة المعنى، بين هيرمينوطيقا الارتياب والشــبهة وهيرمينوطيقا الإيمان. ولا يمكن فصل هذه **التعدُّديَّة المعرفيَّة أو الإبستيمولوجيَّة** (تعدُّديَّة المعاني والتأويلات) عن **رؤيةٍ أُنطولوجيَّــة تعدُّديَّةٍ** تــرى أنَّ «الكينونة تُقال دائماً بطــرقٍ متعدِّدةٍ وكثيــرةٍ»، وأنَّ كلَّ هيرمينوطيقا توضِّــح جانباً من الوجود؛ وعلى أســاس هذا الجانب، تنبني هذه الهيرمينوطيقا بوصفها منهجاً.

وبانتقالــه إلى النموذج الإرشــاديِّ الثانــي لأبحاثــه الهيرمينوطيقيَّة (النصوص) ـ أي من هيرمينوطيقا الرموز إلى **هيرمينوطيقا النصوص** ـ لم يغادر ريكور الحقل اللغــويَّ؛ **فالنصُّ هو أكبر وحدةٍ لغويَّةٍ**. ونجد في هذا النموذج أنَّ **التعدُّديَّة** هي ســمةٌ ســائدةٌ، ســواءٌ على مستوى دلالات النصوص أم معانيهــا ومرجعيَّاتها، أم على مســتوى فهــم أو تأويل هذه الدلالات. فانفصال الدلالة الموضوعيَّة للنصِّ عن القصد الذهنيِّ الذاتيِّ لمؤلِّفه يفسح المجال أمام بناء أو تكوين هذه الدلالة أو الدلالات بطرقٍ **متعدِّدةٍ**. ولقد أبدى ريكور دائماً اهتماماً خاصّاً وكبيراً بهذه **التعدُّديَّة** في

1 ـ يمكن القول: إن كتاب ريكور عن فرويد يهدف ـ أساســاً وبالدرجة الاولى ـ إلى إظهار الســمة الأركيولوجيَّــة للمقاربة الفرويديَّــة، ليقوم في خطوةٍ لاحقــة بمحاولة مفصلتها مــع تيليولوجيا ضمنية كامنةٍ فيها وتيليولوجيا صريحة الممثلة، بشــكلٍ نموذجيٍّ، في الفينومينولوجيا الهيغلية. انظر خصوصاً: بول ريكور، **في التفســير: محاولة في فرويد**، ترجمة: وجيه أســعد، (دمشق: أطلس للنشر والتوزيع، 2003)، ص 347 - 409.

الدلالات، وبصراع التأويلات المرتبط بها، وأكَّد أنَّه يوجد دائماً إمكانيَّة لظهور تأويلاتٍ **متعدِّدةٍ** ومتنوِّعةٍ ومختلفةٍ، ولظهور أكثر من طريقةٍ أو أسلوبٍ في بناء أو فهم نصٍّ ما. وما قلناه عن النصّ ودلالاته وتأويلاته ينطبق على الفعل ودلالاته وتأويلاته؛ فدراسة ريكور الهيرمينوطيقيَّة للفعل تأسَّست على نموذج النصّ، وتمَّ اعتبار الفعل موضوعاً هيرمينوطيقيَّاً بامتيازٍ؛ لأنَّه مماثلٌ للنصّ أو شبيهٌ به.

يقارن ريكور مفهومه عن «الترجمة الداخليَّة» بمفهومي التفسير والتأويل. فالتفسير ترجمةٌ لأنَّه يحاول قول الشيء نفسه بكلماتٍ أخرى. والتأويل ترجمةٌ، بقدر ما يتضمَّن قول المعنى نفسه، بصيغةٍ أخرى،

ومع **نموذج الترجمة** ـ بوصفه النموذج الإرشاديَّ الثالث في الهيرمينوطيقا الريكوريَّة ـ **ترتبط التعدُّديَّة باللغات** وبتنوُّعها واختلافها، ولقد أوضحنا آنفاً بأيِّ معنىً يمكننا الحديث عن السمة النموذجيَّة لتعدُّد اللغات وتنوُّعها. وتعدُّد اللغات هو علَّة وجود الترجمة أصلاً. وكما أنَّه من الممكن دائماً أن نروي أو أن نتحدَّث أو أن نفهم أو أن نؤوِّل، بطريقةٍ مختلفةٍ، أو بشكلٍ ومضمونٍ مختلفين؛ فإنَّه من الممكن دائماً أيضاً أن نترجم بطريقةٍ مختلفةٍ.

ونخلص إلى القول: إنَّ التحليل الريكوريَّ لفعل الترجمة يفسح المجال ـ بشكلٍ جليٍّ وقويٍّ ـ أمام الأطروحة القائلة بأنَّ هذا الفعل يمثِّل نموذجاً إرشادياً، ليس لهيرمينوطيقا بول ريكور فحسب؛ بل وللهيرمينوطيقا بشكلٍ عامٍّ أيضاً. فـ«الفهم هو ترجمةٌ» كما أكَّد ريكور مع جورج شتاينر؛ كما تحدَّث ريكور نفسه مراراً عن الترجمة بوصفها نموذجاً إرشاديّاً. كما يمكن مقاربة أو مقارنة مفهومه عن «الترجمة الداخليَّة» بمفهومي التفسير والتأويل؛ فالتفسير ترجمةٌ؛ لأنَّه يحاول قول الشيء نفسه بكلماتٍ أخرى؛ والتأويل ترجمةٌ، بقدر ما يتضمَّن قول المعنى نفسه، بصيغةٍ أخرى، وفي المقابل، الترجمة لا تتضمَّن التأويل (إضافةً إلى اقتضائها الفهم بالتأكيد) فحسب؛ بل هي مثل التأويلُ أيضاً؛ لأنَّه من الممكن دائماً ترجمة كلامٍ ما، بطريقة أخرى. فمع الترجمة، مثلما هو الحال دائماً مع التأويل، نكون دائماً في حقل الممكن لا الضروري، في حقل المفاضلة بين خيارات، لكلٍّ منها معقوليَّته النسبيَّة والجزئيَّة.